



نفحات الحج في الشعر الأندلسي

— د. حياة شتواني (*) - المغرب —

الحج ركن من أركان الإسلام الخمسة، وشعيرة عظيمة من شعائر الدين الإسلامي، فرضها الله تعالى على المسلم المستطيع. وهو موسم ديني، ومؤتمر إسلامي يؤمه الناس على اختلاف أجناسهم ولغاتهم كل عام من كل فج عميق، بغية التقرب إلى الله تعالى، وتحصيل الثواب والأجر منه عز وجل، وتطهير أنفسهم مما علق بها من أدران الآثام وحماة الخطايا.

**عفت المنازل غير أرسم دمنة
حييتها من دمنة ورسوم
كم ذا الوقوف ولم تقف في منسك
كم ذا الطواف ولم تطف بحريم
فكل الديار إلى الجنائب والصبا
ودع القفار إلى الصدى واليوم^(١)**
وذكر ابن خیر الإشبيلي في فهرسته أن للشيخ
الواعظ أبي عمران بن بهيج الأندلسي خمسة في
صفة الحج وأعماله كلها^(٢).

والأندلسيون كغيرهم من المسلمين تعلقوا بهذه
الفريضة، حيث شكلت مطمح أنفسهم، ومهوى
أفئدتهم. لذلك فاضت قرائح شعرائهم بفيض من
القصائد والمقطوعات الشعرية التي تصور مبلغ
إجلالهم لها، وتنضح بحرارة الشوق إلى البقاع
المقدسة، وتنبض بشدة الحنين إليها؛ فهذا ابن عبد
البر القرطبي يقدس الحج إلى درجة أنه يستنكر
بكاء الشعراء على الأطلال، ويرى الأجدى من ذلك
الوقوف في أداء المناسك والطواف بالبيت:

(*) أستاذة باحثة في الأدب العربي وعلوم التربية.

وقد ظلت المدينة قبلة الآمال أيضاً، وموضِعاً يتطلع مسلمو الأندلس للوصول إليه للصلاة في المسجد النبوي، والسلام على النبي الكريم. وكانوا يشعرون بالحزن والأسى إذا ما ودعوه صلى الله عليه وسلم، وودعوا مسجده الشريف، لهذا لم يستطع الزاهد الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد ابن الصقر الأنصاري الخزرجي أن يحبس دموعه لما آتت لحظة وداع النبي صلى الله عليه وسلم، وهو ما يتجلى في قوله من جملة أبيات استهلها بالسلام عليه صلى الله عليه وسلم:

حسب المحب من الحبيب سلام

يقضي به يوم الوداع ذمام
رهناً وروع البين يخرس نطقنا
ومن الدموع إشارة وكلام
قبر تضمن أعظماً تعظيمها
عنه يصح الدين والإسلام
وردت بها نفس المشوق مناهلاً

كل المناهل بعدهن مرام^(٦)
إنها أبيات تتدى بعطر الحب للرسول صلى الله عليه وسلم وتقطر حزناً لوداع قبره. أما أبو الحسين بن أحمد بن جبير صاحب الرحلة المشهورة (٥٤٠-٦١٤هـ) فقد بلغ من تقديسه لفريضة الحج أن رحل ثلاث مرات من الأندلس إلى المشرق، وحج في كل واحدة منها حسبما ذكر ابن الخطيب^(٧). كما وقفنا له على أكثر من مقطوعة تتصل بالحج، كقوله عند تحرّكه للرحلة الحجازية:

أقول وقد دعا للخير داع

حننت له حنين المستهام
حرام أن يلذ لي اغتماض
ولم أر حل إلى البيت الحرام

وشغل الحج لب ابن دراج القسطلي حتى إن قصيدته التي أنشأها في مدح يحيى بن منذر في عيد أضحى، تنضح بالألفاظ التي تقتدر عادة بالحج:

واسعد بعيد طالما أعديته

عوداً بإحسان فعاد فأحسننا

أهدي إليك سلام مكة فالصفا

فمعالم الحرم الأفاصي فالدنا

فمواقف الحجاج من عرفاتها

فالمنحر المشهود من شعبي منى

ومناسك شاققت مساعيك التي

أحذيتها منها المثال الأبيننا

فغدا نذاك يهل في شرف العلا

لهجاً يلبي ليتنا ولعلنا

وخلفت سعي المروتين معاقباً

بين الندى والبأس سعيماً ما ونى

ورميت بالجمرات من بدر الله

ونحرت بدن العرف كوماً بدنا^(٨)

إن توسل الشاعر بألفاظ من مثل: (مكة، الصفا، الحرم، الحجاج، عرفاتها، منى، مناسك، سعي، المروتين، الجمرات) يعكس ثقافته الدينية ومعرفته بمناسك الحج.

وأشار الحصري القيرواني إلى الحج في قوله يرثي ابنه عبد الغني:

طاب فلو عاش حاز علمي

وحاول الحج والرباط^(٩)

فلو طال عمر ابنه لتبحر في العلم، ولما تخلف عن أداء فريضة الحج.

ويصور ابن خفاجة حنين الممدوح إلى مكة، وتطلعه الصادق إلى تأدية فريضة الحج في قوله:

جلي ومن بطحاء مكة جنة

إليه وللبيت الحرام تطلع^(١٠)



الفريضة. ويختم المقطوعة بتقديم التحية والسلام إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

وله عندما وصل إلى مكة سنة ٥٧٩هـ:

بلغت المنى وحللت الحرم

فعاد شبابك بعد الهرم

فأهلاً بمكة أهلاً بها

وشكراً لمن شكره يلتزم^(٩)

فقد اهتزت أعطاف الشاعر بشراً وسروراً بزيارة الحرم المكي والمسجد النبوي، فأحس وكأنه استعاد شبابه وحيويته.

ويتبين لنا من خلال ما سبق من نماذج شعرية أن الحج شكل أمنية عزيزة لدى مسلمي الأندلس، إذا ما من الله عليهم بتحقيقها شعروا بفرح عظيم يملأ جوانحهم، وبسعادة قصوى تغمر قلوبهم. وهذا الشعور نابع من قدسية الحج في الإسلام وفرضيته على المسلمين.

وهكذا فقد ملك الحج ألباب مسلمي الأندلس، واستولى على نفوسهم حتى إن شعراءهم اقتبسوا منه صوراً كثيرة، على نحو ابن زيدون في قوله يمدح المعتمد:

نجل الذي نصحه وطاعته

كالحج تتلوه برة العمر^(١٠)

فقد اعتبر الشاعر النصح والطاعة للملك الذي أنجب هذا الأمير واجبين مقدسين مثل الحج والعمرة. ومدح المعتمد أباه قائلاً:

سميدع يهب الآلاف مبتدئاً

ويستقبل عطاياهم ويعتذر

له يد كل جبار يقبلها

لولا نداها لقلنا: إنها الحجر^(١١)

فالشاعر يفضل يد ممدوحه على الحجر الأسود بما خست به من الندى وكثرة الجدا.

**ولا طافت بي الآمال إن لم
أطف ما بين زمزم والمقام**

**ولا طابت حياة لي إذا لم
أزر في طيبة خير الأنام^(٨)**

يعرب الشاعر في هذه المقطوعة عن تلهفه لزيارة قبر المصطفى والديار المقدسة؛ فلن يلذ له الكرى، ولن تطيب له الحياة إلا إذا من الله عليه بأداء هذه



وقد أنكر ابن دحية هذا التفضيل، واعتبر ذلك من باب غلو الشعراء وإيغالهم فيما ينمقون من زخارف أقوالهم، وقال: «فستان بين يديه وبين الحجر الأسود في الممات والمحيا لأنه يشهد يوم القيامة لمن استلمه في الدنيا، وينال بذلك عند الله جل جلاله المنزلة العليا»^(١٢).

ويجعل ابن الحداد ذرا المعتصم محجة يتجمع فيها العفاة والخائفون كما يتجمع الحجاج في مناسك الحج:

يحج ذراه الدهر عاف وخائف

جموعاً كما وافى الحجاج المشاعرا^(١٣)

ويعتبر أن زيارة دار المعتصم تخفف متاعب الفقر ومشاكله عن زائره، وتكاد تقضي عليه كما أن زيارة مكة المكرمة تخفف المآثم أو تكاد تمحوها:

فزر مكة مهما اقترفت مآثما

وزر أفقه مهما شكوت مفاقرا^(١٤)

وإذا كان شعراء الأندلس قد عنوا بالحديث عن الحج، وباستقاء صور كثيرة منه، فإنهم لم يغفلوا ذكر الحجاج. فهذا ابن دراج القسطلي أنشأ قصيدة في رثاء فقيه كان قد توفى بمصر في طريقه إلى الحج، ومما جاء فيها:

فأي قدر رفيع حان محمله

في النعش يوماً على أكتافهم رفعوا

وأي مختشع لله متضع

حر الشمائل في حر الثرى وضعوا

بشرى لمن زود التقوى لمنقلب

حياه مدخر فيه ومطلع

بميتة في سبيل الله أسلمه

فيها إلى ربه الأنبياء والشييع

في حجة برها في الله متصل

بالمجرمين عن الأوطان منقطع^(١٥)

فقد أسبغ الشاعر على المراثي معاني لطالما ترددت في قصائد الرثاء المتصلة بالفقهاء؛ كالخشوع والتقوى وحلاوة الشمائل ورفعة القدر.

ولابن لبّال من قصيدة حجازية كتب بها إلى الحجاج صحبة الفقيه أبي بكر بن عبد الله بن حباسة الشريشي:

متى أقول وقد كلت ركائبنا

من السرى وارتكاب البيد في البكر

يا نائمين على الأكوار ويحكم

شدوا المطي بذكر الله في السحر

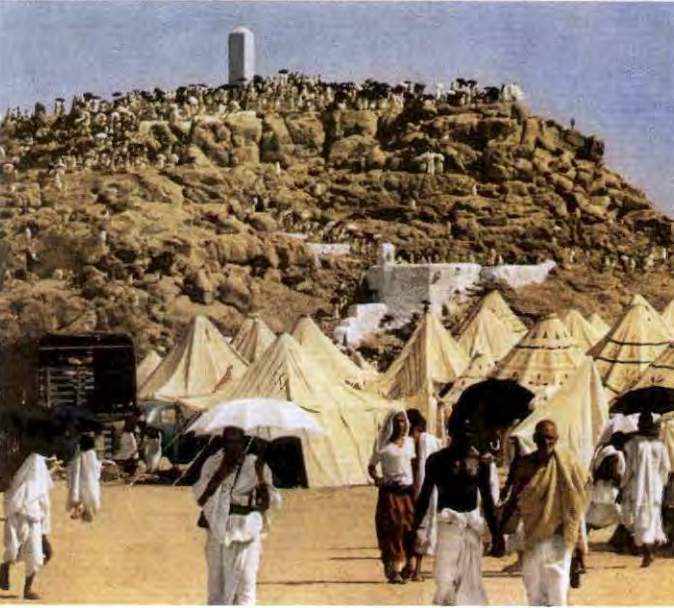
أما سمعتم بحاديانا وقد سجعت

ورق الحمام فوق الأيك والسمر

هذي البشارة يا حجاج قد وجبت

غداً تحطون بين الركن والحجر^(١٦)

في هذه الأبيات يحث الشاعر الحجاج على ترك الكرى ومواصلة السرى. وفيها إشارة إلى ما يكتنف رحلة الحج من مشاق ونصب تجعل من تأدية هذه الفريضة أمراً صعباً.





ومهما يكن من أمر، فإن اهتمام الأندلسيين بذكر الحج والحجيج في أشعارهم يعد شاهداً قوياً وتشبيهاً لهم. على التدين العميق الكامن في نفوسهم، ويكشف عن مدى تمكن هذه الفريضة منهم وسلطانها من نفوسهم، حتى إنها شكلت رافداً ثراً من

الروافد الدينية التي نهل منها الشعراء صورهم وما يزال الحج إلى الآن يثير الشعراء المسلمين في كل بقاع العالم، ويحرك شاعريتهم، فيمدهم بأسخى إحياء، وأوفر عطاء ■

الهوامش:

- (١) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري التلمساني/١/٥٠٥. تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٨م.
- (٢) فهرسة ابن خير الإشبيلي: ٤١٣. دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٢، ١٩٧٩م.
- (٣) ديوان ابن دراج القسطلي: ٢١٩. حققه وعلق عليه وقدم له: محمود علي مكي، المكتب الإسلامي، دمشق، ط ٢، ١٩٦٩م.
- (٤) أبو الحسن الحصري القيرواني (مجموع شعره): ٤٦٩. تأليف: محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى، مكتبة المنار، تونس ١٩٦٣م.
- (٥) ديوان ابن خفاجة: ٨٩. تحقيق: سيد غازي الإسكندرية، ط ٢، ١٦٩٠م.
- (٦) الإحاطة في أخبار غرناطة لسان الدين بن الخطيب ٢/٢٣١. تحقيق: محمد عبد الله عنان، القاهرة. (٧) الذيل والتكملة س ١ ق ١: ٢٣٠-٢٣١. (٨) شعر ابن جبير: ٩٣. جمع وتحقيق وتقديم: فوزي الخطبا، دار الينايع، عمان، ط ١، ١٩٩١م.
- (٩) نفسه: ٨٦. (١٠) ديوان ابن زيدون ورسائله: ٢٠٨. تحقيق: علي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة، ١٩٥٧م.
- (١١) ديوان المعتمد بن عباد ملك إشبيلية: ٢٨. جمع وتحقيق: حامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي، راجعه: طه حسين، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٧م.
- (١٢) المطرب من أشعار أهل الأندلس والمغرب لابن دحية: ١٦. تحقيق: إبراهيم الأبياري وآخرين، راجعه: طه حسين، القاهرة ١٩٩٣م.
- (١٣) ديوان ابن الحداد الأندلسي: ٢١٧. تحقيق: يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٠م.
- (١٤) السابق نفسه: ٢١٧. (١٥) ديوان ابن دراج: ٢٦٧-٢٦٨. (١٦) ابن لبال الشريشي (مجموع شعره): ٨٤. تأليف: محمد بن شريفة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ط ١، ١٩٩٦م.